تـأمـلات أسـلـوبـيـة فـي سـورة الـقـارعـة

م. د. شذى خلف حسين

الجامعة المستنصرية/ كلية التربية

توطئة :

إن خصوصية الكتب السماوية ، ولاسيما القرآن الكريم ، بوصفه نصاً متميزاً بسوره وآياته وروح القداسة المبثوثة في ثناياه جعلت منه منهلاً عذباً للمبدعين ، فالإبداع الحقيقي لا يتم إلا باستيعاب التراث برمته والارتداد إليه ، واستحضاره من خلال اختيار المجالات الإبداعية ، لذا شكل القرآن الكريم جانباً مهماً من روافد المبدع ، فهو الذي تحدى العرب ببيانه وبلاغته (قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً [1])و (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وأدعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين)[2] . ولأنه الخطاب المنزه والجامع لألوان الكلم والفصاحة والبيان ، صاحب السلطة التأثرية في النفوس " وحفظ العربية من الضياع ونشرها في أقطار الأرض وجعلها حية خالدة"[3] ، ولأنه " يلذ الآذان حين تسمع له والأفواه حين تنطق به والقلوب حين تصغي اليه "[4] وليس لأنه تحدى العرب بل لأهميته كمعجم ثري بالألفاظ لا عهد لأديب بها ، ومغزى مستمر في كل زمان ويشي بإمكانيات دلالية عالية وثري[5] ، وعليه فالقرآن الكريم هو المحول الأساسي لقيام حضارة عربية قائمة على أساس الألسنية المتولدة من خلال الجدل أو جدل الإنسان مع الواقع من جهة وعلاقة الإنسان بالنص والحوار الدائم أو الجدل القائم بينه وبين خالقه من جهة ثانية ، وهذا ما جعل القرآن الكريم يشكل الأثر البالغ الأهمية والمتداخل في كل الجوانب ومحوراً مهماً في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية حتى نجد اتساع التأليف فيما يتعلق بالقرآن الكريم وعلومه مؤلفات لا تكاد تحصى لكثرتها وتنوع اتجاهات بحثها، فضلاً عن نشوء وتنوع العديد من العلوم التي عرفت فيما بعد بعلوم القرآن الكريم وهي التفسير والمحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ وأسباب النزول .

أما فيما يتعلق بدراسة النص القرآني وتحليل أساليبه فقد احتل مكانة كبيرة لدى العلماء المسلمين حتى غير المسلمين وهذه المكانة تتأتى من إعجازه ومحاولة العرب في دراسة هذه الجوانب الإعجازية من خلال البلاغة ومحورها أما في العصر الحديث فاحتل القرآن الكريم مكاناً

متميزاً بوصفه نصاً يحتمل أوجه متعددة من التطبيقات لتلك النظريات الحديثة التي كشفت عن جوانب جديدة من وجوه الإعجاز القرآني التي لم يتفطن القدماء الى العديد منها ، ومن بين هذه المناهج الأسلوبية التي تهتم بدراسة النص والكشف عن مواطن الإبداع والجمال من خلال مستويات معينة تتمثل بالدلالي ، والمعجمي ، والموسيقي ، وعليه تأتي هذه المحاولة المتواضعة في دراسة أحد نصوص القرآن الكريم وهي سورة (القارعة) من خلال تطبيق هذا المنهج وأن لم يكن تطبيقاً حرفياً في محاولة للكشف عن بعض الجوانب الإعجازية التي تحدت العرب منذ النزول الى يومنا هذا. لأن القرآن منزل من الله (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)، ونرجو أن تكون محاولتنا المتواضعة جديرة بالقرآن الكريم التي لا تخلو من صعوبات فنية منهجية وأنني حاولت جاهدة أن أجعل هذه المحاولة متكاملة والكمال لله وحده .

المحاور :

1 – المستوى الصوتي الدلالي .

2 – الفاصلة .

3 – التكرار : حر ومقيد .

4 – الانساق التركيبية : استفهام وشرط .

5 – تناظر البنى التركيبية ودلالاتها في المشهد القرآني سورة القارعة والزلزلة أنموذجاً .

بسم الله الرحمن الرحيم

(الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ * يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ * فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ)

المستوى الصوتي الدلالي :

أولاً : الفاصلة القرآنية

لقد بني القرآن الكريم على الفاصلة تأكيداً لقيمتها الموسيقية في الكلام لأن لغة القرآن لغة صوتية تصويرية دالة ذات معاني ودلالات نفسية ، وعليه تتوقع الإذن من توالي الآيات تكرر صوت أو عدة أصوات مشابهة والفواصل هي : " حروف متشاكلة في المقاطع يقع بها إفهام المعاني "[6]. وتنوع مصادر الموسيقى في السورة وتتجاوب أنغامها وأصواتها وجرس كلماتها وإيقاع

فواصلها في التعبير عن مقاصد السورة ونشر أجواء النذر والتهويل والتخويف لاسيما أن فواصل سورة القارعة على أربعة أنساق هي :

1 – من قوله تعالى : (الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ *)

الـ – قا – ر – عة – مل – قا – ر – عة – و – ما – أد – را – ك – مل – قا – ر – عة .

2 – من قوله تعالى : (يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ)

يو – م – ي – كو – نل – نا – س – كل – ف – را – شل – مب – ثو – ث .

فبناء على هذه الفواصل جاء متناسباً متوافقاً من حيث الطول والقصر فهذا التناسب النغمي بين الجمل ، والتوازن بين أصواتها ومقاطعها يبين أن القرآن الكريم يقصد اليه قصداً فنلاحظ الجمل القصار السريعة الإيقاع هي الغالبة استجابة لسياق حاد منذر متوعد ، كما يغلب طابع التأثير الوجداني والموسيقى المعبرة الأسرة التي هي إحدى الأدوات التي حشدت هذه السورة مظاهر موسيقية متنوعة الألحان وذلك لعرضها صور مختلفة ، وهذا الاختلاف يرجع لاختلاف الفواصل الذي يمثل صور توضيحية لاختلاف صورة يوم القيامة التي تبدأ بالقرع؛ لأن القارعة هي القيامة ، الساعة ، الصاخة ، الحاقة هذه الأسماء جميعها هي من أشد الكلمات إثارة للوجدان والخيال معاً، فأما إثارتها للوجدان فلأنها صريحة في بيان الصفة التي تهز النفس من الشيء، وأما إثارتها للخيال فإنها تحدد مفهومها ووضوحه يرتبط هذا المفهوم بآلاف الأشياء التي يمكن أن نتصف به[7] ، ولأنها النازلة الشديدة التي تنزل عليهم أمراً عظيماً ، نلحظ الفاصلة التي تقرع الناس قرعاً شديداً بما فيها من مد وارتفاع في (القا) وما فيها من رمي وإلقاء بسرعة من دون أي تردد في (رعة) وكأن هذه الفاصلة تحكي لنا قيام الساعة بصورة سريعة ومباغتة. إذ لا يراد بها الضرب جزماً وإنما هو استعمال مجازي للتعبير عن التأثير النفسي المساوي لتأثير الضرب والله تعالى يضرب في مختلف العوالم ، مع اقتضاء الحكمة والعدل الإلهي، فكل ضرب هو قارعة ، كيوم القيامة وجهنم وبلاء الدنيا من مرض وفقرعسر شديد لاسيما إذا كان مفاجئاً فهو إذن تعبير شامل لكل بلاء من مصائب الدنيا والآخرة .

ولقد حسم القرع أو الضرب بآخراذ يحدث صوتاً شديداً. لهذا أطلق مجازاً على الصوت الذي يتأثر به السامع تأثر خوف، أو إيقاظ حتى وصفت القيامة بـ(القارعة) مجالها من وقع في النفس الإنسانية بما تحمله اللفظة من جرس يوحي بالصغب والرعب من ذلك اليوم .

أما الفواصل الأخرى والمنتهية بحرف (الثاء ، والشين) فهي مكملة للمعنى إذ تعبر مع النسق الذي جاءت فيه عن الانقلاب الكوني الذي يصبح فيه الناس كالفراش المتطاير هنا وهناك، يتخبط الناس فيه تخبطاً عشوائياً ، وتكون الجبال كالصوف المتبعثر خفة وتطايراً ، وهذه الفواصل تربط مع المعنى وتخضع لجوها والهدف النفسي لها ليكون الواقع أشد وأبلغ[8] لذا ففواصل السورة قائمة على اتحاد الروي (الشين ، والثاء) مع تنوع قوامها بتنوع أغراض السياق، وهذا يطبع النص بإيقاع سريع في الفواصل المتجاوب مع سياق التهديد والإنذار. إذ شبه الناس عند البعث بالفراش؛ لأن الفراش إذا أثار لا يتجه الى جهة واحدة كسائر الطيور او الحشرات وانما هنا وهناك دون تحديد ، وكذلك الناس إذا خرجوا من قبورهم أو غير ذلك وأحاط بهم الفزع والهلع من كل جانب (بعثوا) فتوجهوا جهات شتى، أو توجهوا الى منازلهم المختلفة، لأنهم ليس لديهم حلوم في تلك الساعة، وبمعنى آخر ما دل عليه سياق الآيات الكريمة شكل لنا صورة لا يدركها الخيال ، فهؤلاء الناس على كثرتهم يخرجون من القبور المتفرقة في أرجاء العالم يبعثون ثانية، ويسرعون نحو الداعي، فزعين مضطرين يموج بعضهم فوق بعض، وهذا الاضطراب لا يمثل الحركة فحسب، بل يصور الاضطراب والتدافع الذي يؤدي الى الحساب؛ لأن المبثوث تكمل المعنى لأنها تطلق على الشيء الساكن ثم هيج. لذا تكون الحركة مضطربة غير منطمة ولتكملة المشهد القرآني أي مشهد الانقلاب الكوني شبه (سبحانه وتعالى) الجبال بالصوف المنفوش لأن العهن المتفوش من النقش وهو نشر الصوف وندفه، وهي إشارة الى تلاشي الجبال بمختلف ألوانها بزلزلة الساعة ليس في القارعة لأن التلاشي التام غير حاصل والآلم يمكن تسميتها بالصوف لذلك يمكن أن تفسر هذه الفواصل الآية التي بعدها وهي تصور دقة الحساب . لذا يمكن القول " إن للحرف في اللغة العربية إيحاء خاصاً فهو أن لم يدل دلالة قاطعة على المعنى يدل دلالة اتجاه وإيحاء ويثر في النفس جواً يهيئ لقبول المعنى ويوجه إليه ويوحي به "[9].

3 – (* فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ)

فـ – أم – ما – من – ثـ – قـ –لت– م – وا – زي – نـه – فـ – هو – في – عي – ش – هـ – را – ضي – يه – و – أم – ما – من – خف – فت – م – وا – زي – نه – ف – أم – مه – ها – وي – يه – و – ما – أد – را – ك – ما – هي – يه – نا – ر – حا – مي – يه .

إن الدقة الشديدة في اختيار الفاصلة القرآنية بطريقة يتطلبها النسق ويلح على مجيئها بتلك الهيأة لاسيما الآيات التي ضمت (بصوت الياء المتضافر مع الهاء) اللذين حققا ميزة صويتة وموسيقية مع غنة شديدة وطول واضح في الحد الزمني للسمع مع اتفاق وحالة الإنسان في (عيشة راضية) والإنسان الذي في (الهاوية) ولكي يكتمل سياق الآية مع الإيقاع المتصاعد المنفعل المثقل تارة والهادئ تارة أخرى للوصول الى الدلالة النهائية فيها تتوجه الفكرة الى وصف الحساب وهي " فكرة الانقلاب العنيف الذي يصيب الأرض ومن عليها ثم تفصل هذه الفكرة وتقترن بمعاني الحساب والجزاء التي تدور حولها أوصاف يوم الدين وتصبح عماد لهذه الأوصاف" [10].

ويبدأ التفصيل في هذا المشهد المخيف بعد وزن الأعمال ، وهذا الأسلوب الموجز قد أثار الإسراع الى القول (نار حامية) وذلك بعد أثار السؤال عنها ، ففي حالة (الراضية) ترك التفصيل أما في حالة (نار هاوية) يأخذ بالتفصيل ويكون الإيقاع متواتر ثقيلاً يمر ببطء لأن " صور العذاب في القرآن الكريم أشد تفصيلاً من صور النعيم لأن الإطالة فيها أوقع في الحس وأروع في النفس " [11] وحين يميل الإيقاع السريع في الفواصل للسور المكية الى الهدوء والبطء حتى تطول القرائن بفعل الطول ليعكس أجواء ذلك اليوم العسير، وأيضاً تعكس أجواء الحوار والجدل الموجه للإنسان، وأيضاً حالة المشركين من شعورهم بالندم والخسارة ، لذلك جاءت هذه الفواصل على مقاطع مختلفة غير محددة ، وتفاصيل المشهد لهذه الآية تقوم على التزام الآيات بحرف روي واحد ، وإن كان معظمها قد جاءت على وزن واحد تقريباً ، وذلك بحسب ما يحتاج إليه المعنى .

ويبدو أن انتهاء السورة بفواصل مغايرة عما جاء في بداية السورة كان بمثابة إيذان وتنبيه بالختام وانتهاء الحساب ودقته ، والمتلقي يتنبه الى التحولات الحاصلة بالفواصل التي تتربط بالمشهد وتدل على تحول الفكرة والموضوع ، إذ نرى قيام السورة على :

1 – اضطراب السماوات والأرض .

2 – صفة الناس والجبال يوم القيامة .

3 – القضاء بين الناس ودقة الحساب ، فالفاصلة تؤدي وظيفة إثارة ذهن المتلقي لتبدل الفكرة وانتقالها الى سورة جديدة .

ولو تفحصنا الفواصل في هذه السورة من حيث التراكمات الصوتية فيها وصفاتها لوجدنا ما يأتي :

الفاصل	همس	شدة	جهر	رخاوة
1 – القارعة	11	11	1111	1111
2 – المبثوث	11	11	11111	11111
3 – المنقوش	11	1	111	111111
4 – راضية	1	1	111	111
5 – هاوية	11	1	11	11111
6 – حامية	11	1	11	11111
	11	8	19	28

نلاحظ من هذا التقسيم أن الطابع الصوتي لهذه الآيات الكريمة متدرجاً من حيث (الشدة والجهر) منتقلاً في نهاية الآية (الجهر والرخاوة والهمس) أي انتقل من الموقف شديد الحدة الى الموقف يتنسب على قوة مغلفة بطابع اللين والرخاوة ذلك في نهاية الآية الذي اتسم بحقيقة واقعة أن الإنسان هو معاند ومجادل فهو لا يؤمن بكل ما تعرض عليه من حقائق ، لذلك فالنهاية أصبحت من المسلمات التي تدعو الى قوة أكثر مما جاءت بها الآية الكريمة في بدايتها ، لذا انتقلت قوة الجهر والشدة الى الجهر والرخاوة والهمس ، " وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلا صور تامة للأبعاد التي تنتهي بها حمل الموسيقى وهي متفقة مع أياتها في قرار الصوت اتفاقاً عجيباً يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب ... وأنك واجده في الجمل الفضاء ، ولا يكون إلا بحرف قوي يتتبع القلقلة أو الصفير أو نحوهما فما هو ضروب أخرى من النظم الموسيقي وهذه هي الطريقة الاستهواء الصوتي في اللغ ، وأثرها الطبيعي في كل نفس فهي تشبه في القرآن الكريم أن تكون صوت إعجازه الذي يخاطب كل نفس " [12].

وهذا يؤكد أن سورة القارعة بنيت على فواصل قصيرة ومتوسطة تتبعها وبروز موسيقاها ولأن القارعة هي تكثيف معنوي لمعظم الآيات والسور التي تناولت مشاهد يوم القيامة وعادة ما تتطلب ذلك الموضوع من حدة وقوة أي لغة سريعة أخاذة لأن الجمال القصار تكون استجابة

لسياق جاد منذر ومتوعد له آثاره على أوتار القلوب وجذب الاستماع؛ لأن وظيفته هي الإفهام والترهيب في المتلقي .

ثانياً : التكرار

يعد التكرار من أهم عوامل التماسك في النص القرآني[13] لاسيما أنه وسيلة لتصوير المواقف والمشاهد صوتياً ودلالياً وتصويرياً لأنه يدخل الشيء المكرر في دائرة الوعي ويحفز المخيلة لتنتج صورا صوتية، وبمعنى آخر صورا لفظية ومعنوية تكون قمة في التأثير والإيحاء .

وفي سورة القارعة نجد أن التكرار فيها على نوعين :

1 – تكرار مقيد : يقوم على التجنيس وتكرار ألفاظ بعينها .

2 – تكرار حر : هوالتكرار الصوتي لأصوات مجتمعة أو متفرقة في نسق الكلام. وللتكرار أسباب ودواعي منها أن المتكلم يكرر ليفهمه من لم يكن قد أوتي الفكر الثاقب الذي يستطيع أن يفهم العبارة بسرعة بمجرد سماعها؛ لأن التكرار مسألة ذات حدين الأولى يكرر الكلام لتفهمه العامة التي لا تستطيع فهمه لأول مرة ، أما الثانية فيدخل التكرار الكلام دائرة الوعي والإدراك والتنبيه .

على أن الكلام عندما يكرر فلا يزيده تكراره إلا جمالاً وقوة ، والتكرار في الكلام حالة تفسية كثيراً ما يجريها المرء من غير تفكير أو يعمد أليها فنحن نكرر الكلام لتنبيه ، ويتكرر للتكثير ، ويكرره للتوكيد والمبالغة ونكرره لاستحضار المعنى في أنفسنا أو في نفوس السامعين هذه بالنسبة لنا كثير ، فكيف الحال مع الله .

1 – التكرار المقيد :

جاء هذا النمط من التكرار في سورة القارعة في قوله تعالى : (**الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ***) إذ تكررت لفظة القارعة ثلاث مرات في النسق نفسه مما يدل على حالة الإذعان والخضوع والخوف لأن القارعة في الآيات الثلاث هي مظهر من مظاهر يوم القيامة ، وهي تشكل كل المظاهر الكونية التي تحدثت عنها كثير من السور وآيات عديدة[14] وقد جاء تفسيرها القرع هو الضرب بشدة واعتماد اذ تحصل منه صوت شديد ، وهي القيامة التي مبدؤها النفخة الأولى ومنتهاها فصل القضاء بين الخلائق – كما في سورة التكوير – وسميت بها لأنها تقرع القلوب والأسماع بشتى الأفزاع والأهوال، وتخرج جميع

الأجرام العلوية والسفلية من حال الى حال، السماء بالانشقاق والانفطار والنجوم بالتكوير والانكدار والانتشار، والأرض بالزلزال والتبديل والجبال وبالدك والنسف)) ومما يؤكد أن الله (عز وجل) قال بعد الافتتاح والتكرار بالقارعة وصف الأحوال الكونية بصورة دقيقة فالقارعة بتكرارها تجمع كل تلك الأهوال التي تحدث في الكون لتهيء الناس للوقوف في يوم القيامة ، وعليه فإن تكرارها من (سبحانه وتعالى) بأنها القيامة، والساعة وهذا ما يلقي صورة واللطم على حين غفلة، والمشهد المعروض هنا مشهد يدركه الذهن في تجسيد حسي. إذ يبدو الناس في ظلاً ضئيلاً على كثرتهم فمن تناسق العرض تسمى القيامة (بالقارعة) ليتسق الظل الذي لقب اللفظ والجرس الذي تشترك فيه حروفه كلها من منظر الناس ذلك الحين ولكن تكرار اللفظ (القارعة) ثلاث مرات أعطى شدة ورهبة وتهويلاً ليوم القيامة حتى أن الحروف التي تناوبت أصواتها ما بين الشدة والجهر والانفتاح والاتفشي والصمت أعطت صورة إيقاعية سماعية توحي بالخوف ، فبعد هذه الصورة المستقلة لكل مظاهر الكون التي تضرب وتقرع من خلال الساعة الخاضعة لإدارة الله (سبحانه وتعالى) وهذا ما يجعل الإيقاع السريع المتجاوب مع سياق التهديد ينتقل الى التفصيل وغليه فان هذا التكرير ما يوحي بالرهبة ويملأ القلب رعباً من التكذيب بهذا الواقع بلا ريب.لذا إننا لو نظرنا الى هذه السورة وجدناها تتحدث عن وقوع اليوم الآخر وصفاً لحال الناس والطبيعة (الجبال) التي تدل على قدرة الله.اذ أورد نوعا آخر من التكرار المتمثل في لفظة (موازنيه) التي استخدمها القرآن الكريم وسيلة لتثبيت المعنى في نفوس قارنيه وإقراره في افئدتهم حتى يصبح عقيدة من عقائدهم لم لها من أثر في النفس وتؤكد الجملة بذلك لتثبيت معناه وتوطيده في النفس ، ولتعميق فكرة الحساب ودقته الذي يكمن في أن الإنسان يلاقي الله (سبحانه وتعالى) في يوم القيامة ليوافيه أجر ما عمل، ثم التقابل في المعنى بين الهاوية والحامية) ، وبين (خفت وثقلت) وهي من الجناس غير التام وما فيها من التقابل في المعنى تتشاكل لفظاً وتضاداً معاً وفي هذه المتقابلات لذة السمع ولذة العقل كما يصاحب التشاكل من حالة الشغف والبحث عما خفي في المعنى وللمطابقة والمقابلة أثرهما الموسيقي الى جانب المتعة العقلية بين الأضداد وحسن نفعها وعليه يؤدي التكرار دوراً في تنامي الصورة بما يحدثه من التشاكل اللفظي والأذن من خلال لذة بتكرار الأصوات، وكأنها لذة رجع الصدى الى جانب ما تحدثه من تشاكل من الدلالات، وما نسميه من إيحاءات تكسب النص التعظيم من موقف الحساب ونجد جملة (موازنيه) مكررة مرتين الأولى لبيان حال المؤمنين والثانية حال الكافرين وهي تفصيلة للأحداث واستدعى الموقف العام تكرارها في السياق .

كما وتكررت جملة (موازنيه) مع اختلاف السياق الذي وردت فيه فالمرة الأولى وردت هذه الجملة لتكمل سياق الآية مع الإيقاع المتصاعد المنفعل تارة والهادئ تارة أخرى للوصول الى الدلالة النهائية فيها .اذ ان الفكرة الموجهة في وصف يوم القيامة الحساب هي " فكرة الانقلاب العنيف الذي يصيب الأرض وما عليها ثم تفصل هذه الفكرة وتقترن بمعان الحساب والجزاء التي تدور حولها أوصاف يوم الدين وتصبح عماد لهذه الأوصاف "[15] وتبدأ عملية وزن الحسنات والسيئات ونتائج هذا الميزان النهائية وبناء عليه يتحدد مصير الإنسان ، لذا وردت في المرة الأولى لتبين حال المؤمنين وفرحهم بالنجاة والفوز برضا الله (سبحانه وتعالى) لأنه بنعمة راضية .

أما في المرة الثانية التي وردت فيها هذه العبارة، فقد وردت في محل أشتد الحال و تم تحديد مباشر لأعمال الكافرين.لذا يأخذ السياق بالتفصيل، ويكون الإيقاع متواتراً ثقيلاً وبطيئا وفيه إطالة؛ لأنها أوقع في الحس وأروع للنفس حتى أن لفظة الأم متناقضة تماماً علما انها جاءت للمعنى في الظاهر الملجأ والمرجع والملاذ للإنسان ، لكن هنا الام النار وهي الملاذ للكافرين ، وبعدها أطلقت لفظة الهاوية كصاعقة وصدمة عنيفة للنفس، وعاود السؤال للتجهيل ولزيادة التهويل وسرعة الجواب وقصره ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ ، فهذا إخراج عن حدود التصوير والإدراك لفظاعة الموقف يأتي الجواب كثير الختام ، أنها مفاجأة تعبيرية تمثل الحقيقة القاسية، وهذا ما يبين حال الإنسان وما يلاقيه من شدة وأهوال ومحن في طريق مسيرته الى ملاقاة الله (سبحانه وتعالى) الذي ورد في قوله تعالى .اذ فجاء التكرار للمطابقة والتثبت ، فالمعنى الدلالية والصوتية تظهر بجلاء اذ تحمل معنى التهديد والوعيد الذي ينتظر الكفار.

2 – التكرار الحر :

يعتمد هذا التكرار على تجمع أصوات بعينها في نص محدد وبشكل لافت للنظر فتفصح عن المعنى العام وتتآزر ببيان ذلك المعنى وأصوات التأثير والإلهام ، وتأتي هذه الأصوات بقصدية كاملة وبكل طواعية التشاور مع بعضها في انسجام تام مجسدة لأسلوب النظم القرآني ، فتكرار الأصوات في القرآن الكريم وسيلة يعتمدها النص القرآني للأصوات في القرآن الكريم وسيلة يعتمدها النص القرآني للتعبير عن معانيه وأغراضه ، ونجد الآيات كلها تأثيراً واحداً لصوت (القاف) الذي تكرر وصوت الكاف فهذان الصوتان لهما من القوة والشدة مما جعلنا نربطه بالمعنى الكلي للسورة فمعنى السورة الكلي يقوم على التنبيه والإيقاظ والضعق المستمر لأولئك الغافلين ، واشتملت اللفظة على (القاف) و (العين) وهما من الحروف الطلق وهما عند الخليل من أطلق

الحروف وأضخمها جرساً ، قال : ((العين والقاف لا تدخلان في بناء الاحسنتاه لأنها أطلق الحروف ، وأضخمها جرساً)).

هذا المقام نجده يقتصي جرساً عالياً تقرع بشدة هذا الكفور الكنود فـ (العين) من أنصح الحروف ، فإننا بلا شك نشعر بالرهبة عند سماعنا هذا الصوت الناصع والجرس الضخم يتكرر ثلاث مرات متواليات ، وكان بالإمكان أن تكون القارعة ما هي ، ولكنها عند ذلك تفقد هذا الإيقاع وهذه الروعة .

وعليه فإن تكرار اللفظ (**الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ***) أعطى شدة ورهبة وتهويلاً ليوم القيامة ، والحروف التي تناوبت أصواتها ما بين الشدة والجهر والانفتاح والاستفالة والأصوات البقية أعطت صورة إيقاعية سماعية توحي بالخوف ما لفت الانتباه تناوب الجهر والشدة مع الجهر والرخاوة بصورة متزنة متناسقة ما بين الحروف .

وكأن كل حرف أو صوت يحمل علامات استفهامية تثير الانتباه حتى تكرار (الراء) جاء متناسباً ليدل على سرعة الحدوث . إذ على الرغم من قلته فإن له وضوحاً وتأثيراً كبيراً في بيان المعنى .

وعليه فالقرآن الكريم يتخذ من تكرار هذه الأصوات وسيلة لتعبر عن آياته ومن تكرار الأصوات أيضاً قوله ((**يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ**)) اذ تكرار كل من (الشين والثاء والكاف) فيها من الانتشار والتفشي مناسباً للجو العام للسورة والمشهد القرآني، وهو مشهد الانقلاب الكوني الذي يصبح فيه الناس كالفراش المتطاير هنا وهناك يتخبط تخبطاً عشوائياً ، وتكون الجبال كالصوف المبعثر خفة وتطايراً ، فالمناسبة بين تكرار هذين الحرفين أو الصوتين من جهة والجو العام للإنقلاب الكوني من جهة أخرى حقق جرساً في الأصوات ملبياً لحاجة المعنى والسياق . فإذا جاء المعنى رقيقاً شفافاً هادئاً جاءت أصواته تحاكي ذلك المعنى بجرسها ، وإذا جاء شديداً مركباً جاءت أصواته بما يتلائم معها ويجسدها، وتكرار الأصوات في القرآن الكريم وسيلة يتخذها السياق القرآني في التعبير عن معانيه وأغراضه .

والتفاوت في مقاصد السور والآيات وموضوعاتها يصاحبه تفاوت في طبقة ارتفاع الموسيقى الصوتية وعليه فان تكرار (الميم) (14 مرة) تطبع السياق القرآني بكل صفاته التي هي جهر – رخاوة – استفالة – انفتاح – انزلاق . لذا فالمعاني ترتبط ببقية الأصوات والفواصل، إذ

الغاية هي الصيغة الصوتية للفاصلة وتشد من أزر الدلالة وتقويتها ، علماً أن تكرار الميم كان الهدف منه لجذب الإسماع الى ما سيلاقيه الإنسان المؤمن والكافر ، ثم تكرار (الثاء) مرتين (والهاء) سبعة مرات ومن صفاتها : همس – رخاوة – انفتاح ، وهذا ما يجسد ارتباط الأصوات في المعنى ، وعليه فإن النظر للأصوات بشكل عام كما هو في الجدول يجد أن تكرار الميم وتكرار الهاء على مستوى المشهد القرآني، وكأنها حالة تضافر أسلوبي بين العنوان والأصوات المكونة في السورة القرآنية ، فالعنوان قد مهد تدريجياً للدخول في مشاهد القيامة عبر الصوتيات المكثفة في تحقيق المعنى الدلالي المراد ، وهذا ما يؤكد قولنا في بداية البحث أن أصوات الجهر والهمس هي المهيمنة في السورة كلها ، فهي تتصاعد وتتصدر القائمة ، ثم تأتي بعدها أصوات الرخاوة؛ لأن الموقف في السورة ذاتها يتطلب الشدة والجهر والهمس للإفصاح عن حقيقة يوم القيامة والمفاجئة للمتلقي على هذه الحقيقة ، فالإسلوب متأرجحاً بين الجهر والرخاوة والهمس ، لأن الموقف الشديد الجدي انتقل الى موقف يعتمد على قوة مغلفة بطابع اللين والرخاوة لأنها تحقق وقعاً أكثر للنفوس .

هذا الجدول يبين دورة الحروف ومدى تأثرها على السورة كلها :

1 – الميم 14 مرة ⟵ جهر + رخاوة .

2 – الهاء 10 مرات ⟵ همس + رخاوة .

3 – الراء 8 مرات ⟵ استعلاء + جهر + رخاوة .

4 – الفاء 7 مرات ⟵ همس + رخاوة .

5 – العين 5 مرات ⟵ جهر + رخاوة .

6 – القاف 4 مرات ⟵ جهر + شدة .

7 – الثاء 3 مرات ⟵ همس + رخاوة .

8 – الشين 3 مرات ⟵ همس _ رخاوة + تفشي .

9 – التاء مرتان ⟵ همس + رخاوة .

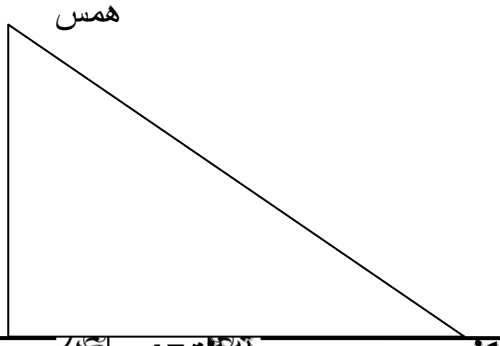

الجهر رخاوة

وهذا التخطيط المبسط يدل على أن الخطاب القرآني يتناوب بين الجهر والهمس والرخاوة فيبدأ بالجهر وينتهي بالهمس ليؤكد حقيقة التقسيم القائمة في السورة القرآنية هي :

1 – وصف أهوال يوم القيامة .

2 – وصف الناس والجبال .

3 – دقة الحساب .

البنية اللغوية الدلالية :

لا يجوز استقبال العمل استقبالاً تلقائياً نابعاً من الذوق الشخصي وحده ، بل لابد أن تكون هناك حاجة الى الضبط العلمي والجهد الدؤوب في اكتناء علاقاته الإبداعية والتركيبية والتصويرية ، ثم محاولة النفاذ من هذه العلاقات الى إيمائاتها النفسية والفكرية، إذ نحن بحاجة الى عمل منهجي منظم عمل فيه اختيار واع لفنية العمل ومكوناته، وغاياته لاسيما أن القرآن الكريم مضمون متحول الى شكل. لذلك علينا البدأ بتحليل مكونات الشكل وصولاً الى المضمون، وكل هذا ينطلق من أن أي تغيير يطرأ على بنية ما يترك آثاره العميقة على البنية بأكملها .

لذلك تعد البنية اللغوية المفتاح الأساس للمقومات التي يستند عليها النص القرآني في بناء أسلوبه الخاص وتحقيق جماليته من خلال علاقاتها مع غيرها من البنى التي تشكل بتظافرها نسيجاً متكاملاً معماريا يصعب فصله؛ لأن عملنا إجرائي لذا لابد من الفصل الموقت من أجل الوصول الى الغاية الأساس وتحديد مقومات الجمال والإبداع الإلهي. لذلك فإن سورة القارعة تحتوي على انساق لغوية هي : الاستفهام – الشرط .

وهذه الانساق تمثل نقطة ارتكاز السورة التي يقوم عليها الاحتجاج والأحداث:

القارعة ، وما أدراك ما القارعة (ما أدراك) صيغة نافية غير عاملة؛ لأن المقصود امتناع الإدراك بأي سبب متصور أو منظور من الأسباب الدنيوية، فتكون (ما) نافية غير عاملة، والمعنى أنت عاجز عن إدراك القارعة بسبب منظور فسبحانه وتعالى عندما يصف يوم القيامة يبدأ بحرف غير عامل حتى تكون الدلالة أكثر تأكيداً وثبوتاً ، وقبل ذلك القارعة هي مبتدأ مرفوع .

النسق الأول : الاستفهام

ورد الاستفهام في القرآن الكريم على أصل معناه، وهو طلب الفهم ومعرفة المجهول كما في قوله تعالى : ((يسألونك عن الساعة أيان مرساها)) وقوله ((قال فرعون وما رب العالمين))

الاستعمال كثير في القرآن الكريم وأكثر منه أن يخرج الاستفهام من أصل وضعه لمعان أخرى تفهم من سياق الكلام ، فمن ذلك الإنكار و النفي وما بعده منفي، ولذلك تصحبه (إلا) ويعطف عليه المنفي ويكون معناه في الماضي معنى لم يكن وفي المستقبل معنى لا يكون ومنه ذلك قوله تعالى : ((أنؤمن لك واتبعك الأرذلون) ولعل السر في جمال الاستفهام هنا والعدول اليه عن أسلوب النفي لأن الاستفهام في أصل وضعه يتطلب جواباً وقد يخرج الاستفهام الى التوبيخ على فعل وقع وقد يقع للتقرير وأيضاً قد يخرج الى التعجب وتنبيه المخاطب على الظلال حين تدفعه بالإستفهام الى التفكير وتدبر العواقب كما نرى ذلك في قوله تعالى : ((إذا الشمس كورت * وإذا النجوم انكدرت)) فأين تذهبون ،والحس بالهول والخوف يثيره الاستفهام في قوله تعالى (**الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ***) وفهم التهويل من الاستفهام لأنك به توحي الى المخاطب بأن ما ذكر لا يليق أن يمر به المرء مر الكرام ، بل من الواجب التريث والتمهل وفهم حقيقته ومدلوله بالتهديد والوعيد .

وعليه نجد في القارعة تدرج وانتقال في الأخبار المجردة في لفظة القارعة الى الاستفهام (**مَا الْقَارِعَةُ ***) أي شيء هي، وهذا الاستفهام يترك فضولاً في نفس المتلقي في معرفة هيأتها وتشد انتباهه إليها بما يهيأه مفاجأة في نفسه تولدت نتيجة للانتقال من أسلوب الى آخر ، فالاستفهام هنا خرج لغرض التهويل والتعجب كي يضيف مفاجأة ثانية والسامع مازال تحت تاثير الأولى أي الصفعة الأولى ودهشته قائمة . لذا فإن قوله تعالى (**مَا الْقَارِعَةُ ***) ما استفهامية خبر القارعة مبتدأ وليس بالعكس لأن الفائدة تكمن في الخبر لا المبتدأ لأن المبتدأ محذوف تقريره ما الاستفهامية كالذي بدعه ويدل عليه بنفسه بنحو القرينة المتصلة أي (**مَا الْقَارِعَةُ ***) ولا ريب في أن مدار الإفادة تكمن في الهول والفخامة هي عبارة (**مَا الْقَارِعَةُ ***) على شيء عجيب من الفخامة والتأكيد فالتهويل والتخويف جاء بعدها (**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ***)، ثم أن الخاصة البيانية لهذا الأسلوب (**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ***) استعماله في التهويل المثير لما يجاوز دراية المسؤول ، أما لجلال الأجر وعظمة غايات القارعة فضلاً عن كونه من الغيب المتعلق بالمصير في اليوم الآخرة يتجاوز دراية البشر وإدراكه[16].لاسيما أنه افتتاح السورة كما قلنا بشيء غير عامل أي جملة أسمية حتى تكون أكثر تأكيدا ودلالة على القرع ، ثم أنه جاء بلفظة القارعة حتى شكلت وكأنها قذيفة وجهت الى النفس البشرية فهي بلا خير ولا صيغة تلقي بظليها وجرسها الإيحاء المروي المرهوب

المرعب، ثم أردفها سؤال فيه غموض وتهويل ودهشة (**الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ**) ثم أردفها التجهيل التام (**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ**) فهي أكبر من تدرك فلا علم لنا بكهنها ومدى عظمها فإنها من العظم والشدة اذ لا يحيط بها وصف أو يلم بها تصور[17] ، ثم يرجع الى البداية نفسها (**فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ**)

(**وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ**)

استعمله الله (سبحانه وتعالى) لكونه يتحدث عن الغيب المتعلق بالمصير في اليوم الآخر ويتجاوز هذا دراية البشر وتعميم إدراكه وتمثله (**وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ**) أولاً أن المخاطب المجموع كمجموع هو مفهوم انتزاعي ذهني لا معنى لتحمله المسؤولية والتكليف، بل أن المطلق حقيقة هو الفرد ، فيكون الخطاب انحلالياً الى كل فرد فصح استعمال الفرد في خطابه لأنه موجه الى الإنسان الكافر ، ولكن (ما) هنا تعجيبة؛ لأن التعجب سيكون من الإدراك لا من النار الحامية كما هو مقتضى السياق فيكون المراد وجود الإدراك لا نفيه ويكون التعجب من وجوده .

لأنه لو كان استفهام، أو نفي لشكل هذا تناقض في نفسه لأنه خلاف قوله (**وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ**)

فيتعين أن لا يكون السابق عليه استفهاماً حقيقياً ، لأن النار حامية بمنزلة الجواب على ذلك السؤال ، ويكون الاستفهام عن سبب الإدراك لكونها ناراً حامية ، بحيث يكون اللفظ المتأخر مبتدأ للمتقدم .

وبعدما أطلقت لفظة (الهاوية) كصاعقة وصدمة عنيفة للنفس عاد السؤال للتجهيل لزيادة التهويل وسرعة الجواب تقصره (**وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ**)

فهذا إخراج عن حدود التصور والإدراك لفظاعة الموقف يأتي الجواب كثير الختام أنها مفاجأة تعبيرية تمثل الحقيقة الحتمية القاسية ، وعليه فالأم أقرب الناس الى المرء فهي المأوى والحنان والوطن ويدل ذلك على الانغماس بالعذاب الى أبعد حد فهي النار (**فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ**)

جملة أسمية أخبارية تبين الحال التي يصف اليها وهي جملة ووقت جواب (أما) وتبين النسق الثاني وهو الشرط .

النسق الثاني : للشرط

يقوم البناء الشرطي في اللغة العربية على أداة الشرط + فعل الشرط + جواب الشرط .

فانفتاح الجملة بأداة الشرط مدعاة لجذب الإسماع شوقاً لجواب ذلك الشرط ، لاسيما إذا كانت جملة الشرط تحمل في طياتها دلالات خطيرة رحبها تتشوق النفس لمعرفة الجواب، فلو أمعنا النظر في الشرط داخل السياق القرآني في سورة القارعة في قوله تعالى : (**فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ**)

استعمال أسلوب الشرط هنا وفر مساحة واسعة ومرونة في فسح المجال إمام المتكلم لأداء أفكاره وصياغية عباراته ليأتي تقسيم الناس الى أصحاب نار وجنة لاسيما أن الشرط ينهض بوظائف لا تقل قيمتها عما عداها من الظواهر الأسلوبية منها تنوع الدلالة ، اختلاف مقتضات الإيقاع ويخلق انسجاماً للنسق مع الانساق الأخرى ويؤدي الى تعاقب الصور (الحدث). فضلاً عن كون هذا الاسلوب يقوم على الاحتجاج ويخلق حالة التهويل والترهيب والتذكير / والآية الكريمة السابقة لو حللناها لوجدنا أنها تحقق دلالات جديدة دفعت بالإيقاع للاختلاف والتنوع ، وجعلت النسق الذي جاءت فيه متصلاً مع الأنساق الأخرى ، فضلاً عن الوظيفة الاحتجاجية الواضحة لعرض الأمثلة وتقصيها بالبرهنة والإقناع مع استيفاء الأحداث ، وتجزئة واضحة للمشهد القرآني مع كونها تفيد المباغتة ، فلو حذفنا الأداة من هذه السورة لأصبح الكلام في مستوى بلاغي غير مستوف للدلالات التي سبق ذكرها ، بل نجده يفقد الإثارة والتشويق لاستقبال الحدث كما نجد في هذه الآيات الكريمة أن فعل الشرط قد حذف ، ودخلت أداة الشرط على الأسم مباشرة مما قرب الحدث وزاد من تأثيره في المتلقي أي أن الأمر حدث فجأة وهذا ما تناسب وإخفاء الله I لأمر يوم القيامة الذي وصفه مرات عديدة كما سيقع مرة واحدة – ودقة الحساب التي تتناسب مع الزمن المخصص لها ، فأمر حدوث الساعة أمر خاص بالله .لذلك نلحظ أن تأثير هذا الأمر انعكس على البنية اللغوية ذاتها ومجيء الفعل الماضي المبني للمجهول الدال على المستقبل الذي له أثر بالغ الأهمية في حصول الشيء بسرعة تناسب تناسباً طردياً مع (أما) الشرطية التفصيلية والزمان المتقدم ، وعليه عمقت الشعور بتكيف الحدث وتركيزه على ركيزتين أساسيتين هما دقة الحساب يوم القيامة واستخدام الموازين ومحاسبة الإنسان على أعماله هي صورة مادية تنقل الى الذهن العربي صوراً من بيئته هذا ما يشكل مجمل ما يحيط بالانسان .

وعليه شكلت تلك الآيات سرد وتفصيل للمشهد القرآني بطريقة متدرجة بحسب زاوية النظر الإلهي، وبما يلائم المقام التي ذكرت فيه ثم أن الآية الأخرى هي معطوفة على جملة الشرط الأولى لتمهد بانتقال الخطاب الى الإنسان الذي هو الغاية .

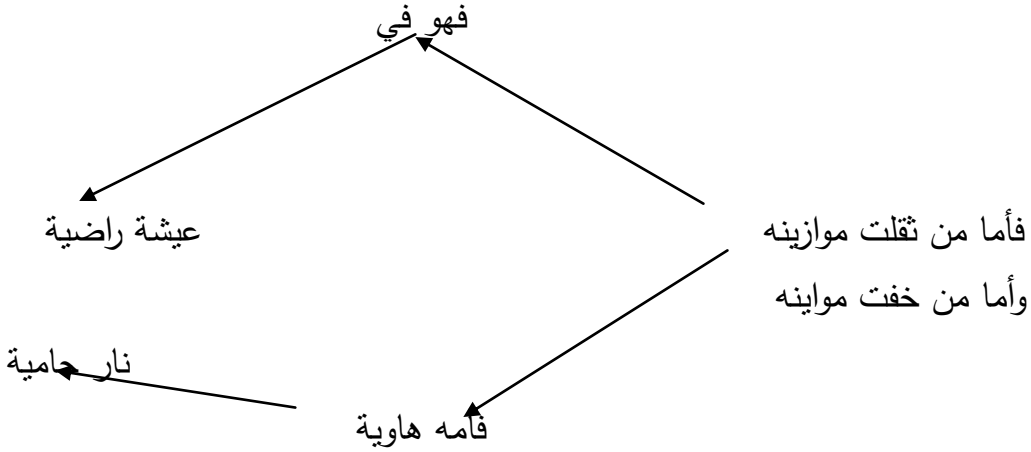

نلاحظ الفعل الماضي (ثقلت ، وخلفت) (راضية ، حامية ، هاوية) (أما) التفصيلية (الجواب المقترن بالفاء) .

استعمال صيغة أسم الفاعل والمراد بها أسم المفعول، وصيغة الفعل الماضي والحرص على التناوب فيها له غاية مهمة في تأدية المعاني الدقيقة المرادة. إذ يخلق هذا النوع إثراء في الدلالة وإغناء في الإيحاء لضم معان متعددة ، تجمع بين الثوابات والاستمرار والمداومة التي تحققت بوجود (أسم الفاعل في الفواصل الذي أعطى مدى زمنياً ثابتاً لا يتغير ويترك في ذهن السامع صورة ذهنية ثابتة ، وزاد هذا الثبوت توكيداً لوقوعه وإيحاء بارتباطه بالزمن الماضي ثم مجيئ صيغة أسم المفعول مرة ليبعث في هذا المشهد صفة التجديد والتفصيل والحيوية التي لا تنقطع بما يوحي لنا بصورة هذا المشهد في اليوم الحاضر والمستقبل ، وكأننا نعيشه في التو واللحظة ، ثم اختيار مفردات بعينها تدل على المفادجات والمباغتة التي تتلاءم وهذا الحدث العظيم إلا وهي القارعة بوقوع يوم القيامة وساعة الحساب ودقته واقتران (أما) بإلفاء أعطى دلالة تؤكد جواب السؤال والتفصيل فهي لا تقل أهمية عن (أما) .

ثم استخدام (العهن المنفوش) + (الفراش المبثوث) = دلالة الضعف والانتشار، لأن الله (سبحانه وتعالى) حين شبه الجبال بالعهن المنفوش يريد أن يبين مدى الضعف والتفتيت والانتشار؛ لأن دلالة النفش تعني إرباك القوة واضطرابها والانحلال والتفكيك ، ثم أنه يبدأ من الكل وينتهي بالأصغر ، أما الفراش المبثوث فالبشر حين يخرجون مضطربين يموج بعضهم فوق بعض،

ولا يقتصر الحال على الاضطراب والحركة، بل الى التداعي والاضطراب الذي يؤدي الى التهلكة؛ لأن الفراش المهيج هي أصغر الحشرات وأحقرها تتجه صوب أي ضوء كذلك البشر يتجهون صوب أي دعوة أو داعي؛ لأنهم لا يمتلكون الحلوم وعليه فإن الله جمع بين الجبال والبشر لأنهما يمثلان مركز قوة وشموخ في الأرض كلها . لذا معظم التشبيهات جاءت متناسبة مع ثقل كل منهما ، وعليه فالضعف والانتشار والاحتقار يخرج للغرض التذكير والتكميل والتكثيف لكل ما جاء في السور السابقة .

وهذا المخطط يبين لنا التعالق الدلالي في أنساق سورة القارعة وكيف يجعل بعضها على بعض .

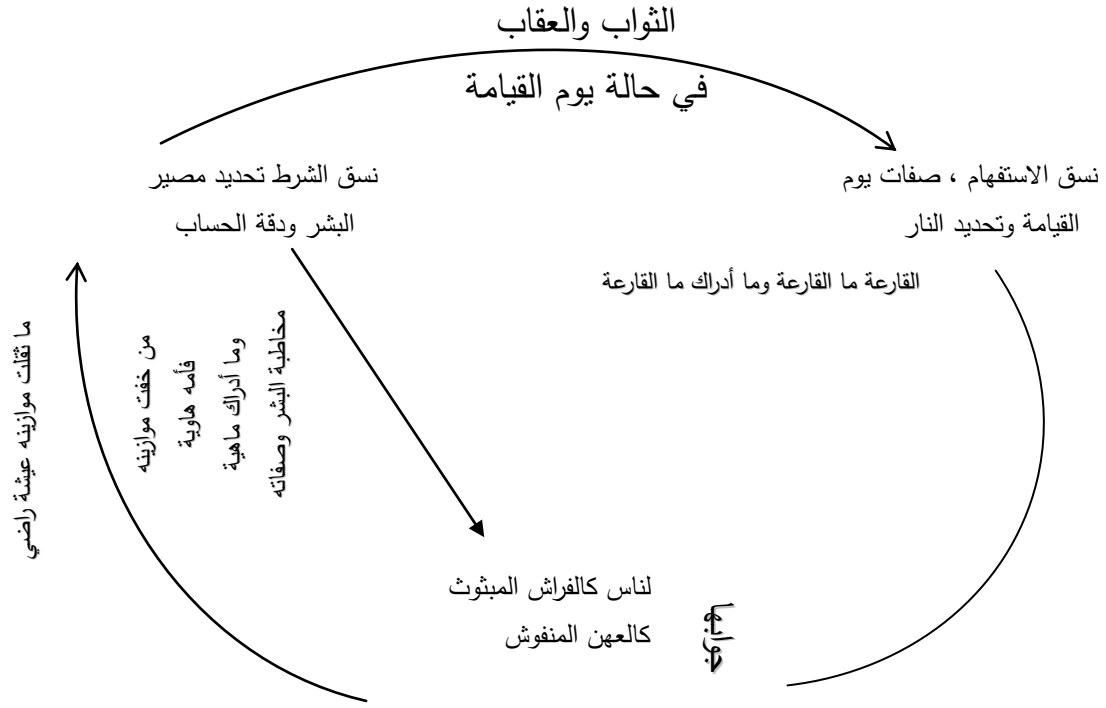

ونجد في قوله تعالى : ((يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ)) أبرز ملامح الاتساع الجمل الأسمية المتكونة من الفعل الناقص وأسمه وخبره فيهما صفة وهي صيغة مبالغة تعد من عوامل الاتساع ولو كان التركيب ((يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ)) كان ذلك سليماً من الناحية التركيبية. إلا أنه لا يحقق الغاية التي صيغت لأجلها الآية وهي وصف حال الناس كما قلنا يوم القيامة وما سيكون عليهن فكأن لهذا الاتساع الغاية الوظيفية هي بيان المعنى المهول والمخيف والتذكير .

تناظر البنى التركيبية ودلالتها في المشهد القرآني

سورة القارعة والزلزلة أنموذجاً

لقد قامت سورة القارعة على ثلاثة مشاهد كان لها مرجعيات في سور الزلزلة ، الانفطار والتكوير والانشقاق مما أضفى على سورة القارعة بعداً اختزالياً وتكثيفاً معنوياً لباقي السور القرآني ، ونجد أن البنى المتناظرة بين (القارعة والزلزلة) قامت علاقات تفسيرية ، تذكيرية أعطت الحدث أهمية أكثر وشمولاً أوسع وتكثيفاً واستقصاء لتفاصيل المشهد حتى نجد دلالات جديدة ووظائف تذكيرية خرجت لتاكيد الحدث وتعميق أثره في مخاطبة النفس الإنسانية، فنجد أن الترهيب في بنية الحدث تدريجية بدأت بصورة تستند الى الصدمة الأولى، ففي سورة التكوير استعراض مفصل للمشاهد المهولة ليوم القيامة بلغت (14 مشهداً) مما صدمت العقل وأوقفته من هول الصعقة الربانية في عر ض الأحداث ولو انتقلنا الى الانفطار نجد أنها تبدأ بأربع آيات تلخص مجمل أحداث سورة (التكوير) فركزت على : السماء – الكواكب – البحار – القبور ، وكأنها قصدت :

السماء + الكواكب = العالم العلوي .

البحار + القبور = العالم السفل أو الأرضي .

فلو فصلنا القول لقلنا أن سورة الانفطار اختزلت في هذه الآية (الشمس + النجوم + السماء) = (السماء + الكواكب) (سور الانفطار) (الجبال + العشار + الوحوش + البحار + النفوس + المؤددة + الصحف) = البحار + القبور) (سورة الانفطار) .

أما سورة (الانشقاق) فتم الاختزال أكثر المشاهد في حديثين هما السماء + الأرض، إذ احتوت على كل ما جاء من مشاهد أرضية وسماوية وكانت أقوى وأشد من السورتين السابقتين من حيث معنى الشرط في الآيتين ، أما (القارعة) و (الزلزلة) احتوت كل منها على ما جاء من مشاهد أرضية وسماوية وكانت كل واحدة أقوى وأشد من غيرها من السور السابقة من حيث تكثيف المعنى، فالقارعة والزلزلة ، تناولت ما يأتي :

1 – أهوال يوم القيامة الذي يبدأ بالنفخ .

2 – ما يصيب الناس والجبال .

3 – الموازين ودقة الحساب .

فضلاً عن هذا أن رقم القارعة في الكتاب الكريم هو (101) أما الزلزلة فهي (99) وكلا الرقمين له دلالة نفسية عالية عند البشر ومما يدل على ثقلها قول رسول الله (صلى الله عليه وآله

وسلم) : ((من قرأ سورة الزلزلة أربع مرات كان كمن قرأ القرآن كله)) و ((من قرأ القارعة ثقل الله بها ميزانه يوم القيامة)) ثم وقوع القارعة مقابلة للزلزلة في القرآن الكريم .

ثم أن القارعة كما قلنا لا يراد بها الضرب جزماً وإنما هو استعمال مجازي للتعبير عن التأثير النفسي المساوي لتأثير الضرب ، يبدأ نظام السورة بالزلزلة بالأرض القريبة عليه وما الذي يحدث حينما تزلزل مثل إذا دكت الأرض وتشقق الأرض سراعاً. لذا فالبنية مبنية على المكان العربي الذي لم يزلزل أبداً إنما شاهدها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عند الإسراء والمعراج. لذا فلبناء فكري ويرجع الى عظمة الله سبحانه وتعالى الذي يقول كن فيكون ، فالزلزلة والقارعة هي الخلاصات النهائية لأنه لم يات بعدهما شيئاً يتعلق بتكثيف واختزال ليوم القيامة والافادة التي حققت من المكان دلالة فكرية ، ثم أن الزلزلة لها تردد واضح في الانشقاق والتكوير والانفطار وأن كانت تقع مرة واحدة، ولكن لأغراض التهويل النفسي .

ولو أخذنا القارعة هي البينة الضابطة وترددتها في الزلزلة وبقية السور سنجد إذا زلزلت الأرض – أثقالها .

ز ل / ز ا / ل / ها طويل مغلق + طويل مفتوح + قصير + طويل مفتوح .

أ ث / قا / ل / ها طويل مغلق + طويل مفتوح + قصير + طويل مفتوح .

فالمقاطع الطويلة تسيطر على هاتين الفاصلتين اللتين تصفان الأرض في زلزلتها المتتابعة يوم تقوم الساعة والزلزلة هي" زلل متكرر كررت حروفه دلالة على تكرر معناه والزلل حركة سقوط مفاجئة "[18]. وأختار سبحانه وتعالى الفاصلة (زالزالها) ليعبر عما يكون عليه حال الأرض كمقدمة أو علامة من علامات يوم القيامة وعندما نقرأ هذه الآية، وتكرر لفظ زلزالها نشعر بحركات الأرض في حسناً ومشاعرنا نتيجة لمجيء المصدر الذي هو من أصل العفل زلل ، ثم ننظر الى كلمة أثقالها التي تبين حال الأرض والعبأ الملقى عليها وكأنها عندما زلزلت تنفست الصعداء وأخرجت كل ما فيها منذ بدء الخلق الى يوم القيامة بسرعة وبكل رغبة واستعدت ليوم الفصل " ولو كانت العبارة أخرجت الأرض ما في جوفها لضاع هذا الإيحاء كما يؤده ويجهضه "[19]، وهكذا جاءت الفاصلة متممة لمعنى الآية وتابعة له ، والقرآن الكريم في سورة الزلزلة ومثيلاتها في السور التي تتحدث عن يوم القيامة "يختار لها أقوى الألفاظ إثارة وإيحاء أما بعنفها كالزلزلة ... ولما برمتها كالبهاء المنبث والعهن المنفوش ، والفراش المبثوث"[20].

أما القارعة ، ما القارعة ، وما أدرك ما القارعة وبناؤها هو ال / قا / ر / عة / طويل مغلق + طويل مفتوح + قصير + طويل مغلق .

إن ما في هذه الفواصل الثلاثة التي أشركت بلفظه واحدة من شدة وقوة وهول وأنقلاب تعجز عن إدراكه العقول وتتخلع منه الأفئدة، وهو ما نحسه عند الأصغاء الى الجرس الصوتي لهذه الأصوات ، فضلاً عما في هذه الصيغة من معنى الفاعلية الذي يترك في النفس انذهالاً ورعباً ، والقارعة تقرع الناس قرعاً شديداً بما فيها من مد وارتفاع في (القا) وما فيها من رمي وألقاء بقوة وسرعة من دون أي تردد في (رعة) فعبرت الفاصلة هنا بجرسها عن معناها بوساطة مقاطعها الأربعة التي تألفت فيها ، فضلاً عن ذلك. فإن تكرار اللفظة ذاتها وجعلها فاصلة لثلاث آيات متابعة ، يترك في الحس حتمية مجيئها الذي لا ريب فيه أن هذه الايقاعات الداخلية ((تبعث في القرآن حتى في اللفظة المفردة في كل آية من آياته فتكاد تستقل بجرسها ونغمها وظلالها بتصوير مشهد من مشاهد يوم القيامة)) .

وعليه ففواصل القرآن الكريم " تابعه للمعنى وليس المعنى تابعاً لها وهي بالتزامها الموسيقي المتفاوت في الدرجة والنوع تتمتع بحرية تامة في الانتظام برؤوس الآي "[21].

لذا نجد تشابه حتى من حيث الفواصل والمد والارتفاع .

ثم أن في الآيتين توازن صوتي بين التراكيب فيهما جرس صوتي وأصوات مجسدة لمعنى التكرار (الزلل في الزلزلة والقرع الشديد في القارعة) فضلاً عن ان صوت القاف والألف فيهما شدة تتناسب مع هول الواقع ، ثم أن تكرار حرف (الراء) الذي استعمل دون غيره دليل على أن الذي ما سيحصل في الأرض في زلزال يكون متابعاً يوم القيامة ((وتحدث حركة الزلل المفاجأة وبصورة متكررة ومتابعة)) أما القارعة النازلة الشديدة التي تنزل عليهم أمراً عظيماً وكما قلنا نلاحظ ذلك في الفواصل وما فيها من مد وارتفاع .

كلا السور اعتماداً على التكرار مع الإيجاز والقصر ، ترسيخاً وتقريراً ، وإقناعاً، وإسناداً الفعل ليس الى محدثه وإنما يأتي مبنياً للمجهول ، كما في إذا زلزلت الأرض .

إذا : أداة شرط غير عاملة ظرفاً لما يستقبل من الزمن ، تكون لها وظائف احتاجية ، تقوم على تقسيم السورة على أجزاء فتخلق انسجاماً مع النسق والأنساق الأخرى مما يؤدي ذلك الى تناغي صور الحدث بحكم ما في هذه الأساليب من تكرار، وتنوع الدلالة مع اختلاف مقتضيات

الإيقـاع ، فضـلاً عـن هـذا تخلـق انسـجاماً إيقاعيـاً مـع الفواصـل مـع ذلـك تخـرج لغـرض التهويـل والتذكير والترهيب .

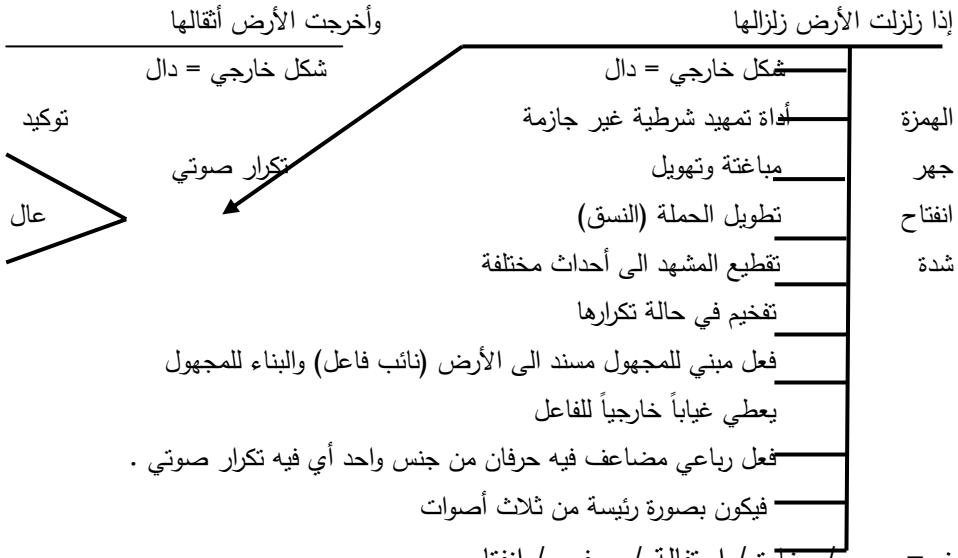

ز = جهر / رخاوة / استفالة / صفير / انفتاح .

ل = جهر / فادة / استفالة ، اذلاق / انحراف .

ت = همس / شدة / مرقق / انفجار .

ولـلأرض مرجعيات سابقة في السور كافة، إنما ذكر أوصافها هي (هامدة) (ذلول) هي واقع مدرك ، أما المتغيرهو الواقع الجديد : ارتجاج وانزلاق وهول صاعق .

الفعل الماضي المبني للمجهول يعطي أثراً للمستقبل وحتمية الوقوع وفسح مجالاً أوسع للتخيل الآني عند المتلقي، وهذا ما يتناسب تناسباً طردياً مع (إذا) التي تشكل الطرف الأول للآية الكريمة .

إلا أن الفارق الأكبر هو طريقة السؤال أهول وأصعق من القارعة، وإذ كانت قد بدأت بشيء غير عاملة كي تكون الجملة أو المشهد أكثر وثبوتاً، ثم القارعة القرع الشديد والزلزلة وأن كانت تدل كل واحدة فهما على الحركات العنيفة والاضطراب الشيء استعملا أولاً في الحسيات ثم انتقالا الى أشياء معنوية وهي الشدائد والأهوال .

من جهة أخرى أن أفعال الزلزلة هي أفعال ماضية مبنية للمجهول، والفاعل حذف للعلم به ، أما في القارعة فهناك أفعال ماضية وأفعال مضارعة والفاعل محذوف؛ لأنه مسند الى الله تعالى ، ولكن الظاهرة الأسلوبية تكمن أهميتها في التركيز والاهتمام في الحدث ذاته وإيحاء بأن الأرض تزلزل مطاوعة واستجابة لانبعاث تلقائي ، وهذا ما يتناسب مع (إذا) التي تدل على المباغتة والسرعة، ثم العامل الأخير هو الضمير المتصل بالأرض يخلق انسجاماً مع التلقائية والسرعة الملحوظة .

لذلك فإن معنى تحديث الأرض والإيحاء لها ؟ هو مجاز عن أحداث الله تعالى فيها من الأهوال ما يقوم مقام التحديث بالنسيان حتى نتظر من يقول مالها الى تلك الأهوال ويأتي (يومئذ) بدل من (إذا) وناصبهما (تحدث) ويجوز أن ينصب (إذا) بمضمر و(يومئذ) يتحدث، وهناك فرق بين الحديث والتحدث والتحديث لذلك هي المشابهة والمغايرة لسورة القارعة في صورة (الجبال والناس) وما يصاحبها من انقلاب كوني .

ثم نأتي الى لفظة (أشتاتاً) استخدمت استخداماً دقيقاً يهيئ السمع لاستقبال معرفة الفرق التي أمست أشتاتاً، فيعمل فكره في ذلك، ثم استعمال الشرط هنا وفر مساحة واسعة ومرونة في فسح المجال أمام المتكلم لأداء أفكاره ، فيأتي تقسيم الناس الى أصحاب جنة ونار فلفظة (أشتاتاً) إجمال وتعطي معنى التفرقة والبعثرة والانتشار ثم أن الفعل (يصدر) ويعني الورد أو الخروج والاتجاه المطلوب . لذلك فالوظيفة هنا الإثارة والترهيب والردع ، هذا المشهد يكون الشبيه المغاير والمردد أيضاً لصورة الانقلاب الكوني في القارعة (*** يَـــوْمَ يَكُـــونُ الـنَّـــاسُ كَـالْـفَـرَاشِ الْـمَبْثُوثِ) (وَتَـكُونُ الْـجِبَـالُ كَـالْـعِهْنِ الْـمَـنْفُـوشِ)**
وهذه الآيات تدل على الضعف والانتشار وانحلال القوة وإرباكها .

ثم يأتي بعدها التفصيل (**فَـأَمَّـا مَـنْ ثَـقُـلَـتْ مَـوَازِيـنُـــهُ * فَـهُـــوَ فِـــي عِيـشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّـا مَـنْ خَفَّتْ مَـوَازِيـنُـهُ)**
فالدلالة جزائية ترغيباً وترهيباً في القارعة. أما في الزلزلة فإن الآية الكريمة ((وقال الإنسان مالها)) استفهام من الإنسان المؤمن خرج يستفهم بطريقة السؤال والاستفهام ، أما الكافر فخرج بطريقة التعجب لأن انتقال الحوار الى الإنسان نفسه ((قال الإنسان مالها)) لا يقوله حقيقة – لأن الدلالة القصدية تظهر من خلال السورة (ليروا اعمالهم) في الوصول الى مصيركم هذا، فالوظيفة تهويل وإنذار، ثم تفصيل ((فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره)) .

هنا يستخدم الله (سبحانه وتعالى) الموازين المادية الموجودة في البيئة العربية لاسيما ان المثقال ذرة هو أحد الموازين المستخدمة لقياس أشياء صغيرة جداً، ثم (الذرة) هي صغار النمل. لذا فالمقصود بمثقال ذرة هو ما يمثل الضالة والصغر وصفة الوزن حتى أن الذرة التي ليس لها وزن لفرط صغرها وخفتها يكون لها أثر في الموازين الإلهية. لذلك فإن تلك الموازين تناسباً عكسياً مع الآيات الكريمة ويصبح كل شيء من الهباء الذي لا وزن له من خفته وضالته يكون له وزناً مادياً

وهذا ما جعله يتلائم مادياً وفنياً مع جو الموقف ونسق السياق من الزلزلة والانفجار والتفتيت والذر فهم يخرجون أثقالاً ويصدرون أشتاتاً ويرون أعمالهم مثقالاً مثقالاً بكل تفاصيلها ، أما القارعة فطلقت أفعال تدل على الموازين (خفت ، وثقلت) (عيشة راضية) نار حامية) (خيراً يره) (شر يره) .

إذن التناسب الطردي يحقق الشبيه المغاير مما يؤكد أن هذه السور (القارعة) و(الزلزلة) ما هي إلا تكييف معنوي للسور السابقة لاسيما التي يبتدأ بعرض الصور المتعلقة بالانقلاب الكوني التي تنقل الجواب الشرطي هي (علمت نفس ما أحضرت) الذي يتكرر في كل السور القرآنية في (التكوير والانفطار والانشقاق) لكن المعنى فيه توسيع مع استيفاء كل الأدلة والبراهين والأجوبة حتى لا يبقى للعقل الكامل حجة على ضلالته ، وفي سورة الانشقاق ينعدم الجواب لأن المقام لا يسع لإعطاء جواب وتعليل للمشاهد، بل قوة هذه المشاهد تستغني عن الجواب للعجلة الموقف ورهبة، وعليه فالخطاب في كل هذه الآيات يتفق بأنه خطاب موجه للكفار والجاحدين الناكرين ليكون الحشر ، فهذا الشبيه المغاير هو حالة الاسترجاع لسورة الانشقاق تحيل وتشير مرجعياتها الى (التكوير ، والانفطار ، القارعة والزلزلة) لكن بصورة مختزلة ومكثفة ، وهذا الموضوع من إيراد القرآن الكريم لهذه البنيات المختزلة المتشابهة والمغايرة في آن واحد. كما أن هذا الترابط التفسيري في مفردات ودلالات النص القرآني يؤكد المقولة التي تنص على أن ((وجود الجزء مرتبط بغيره)) وهي حالة من الاتصال والتكامل والتعاضد ، وبمعنى أنه لا يعمل الجزء إلا بوجوده مع غير .

وقبل الختام أقول أن الزمن الذي تستغرقه ، أي زمن النغمة أو السكتة الفاصلة بين فعل الشرط وجوابه المقترن بالفاء يكون أسرع مجيئاً إذا كان مقترناً بالفاء، والدليل ذلك (**فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ**) والزلزلة ((فمن يعمل مثقال ذرة خير يره)). لذا إننا نقرأ الآيتين متواصلتين دون الوقوف الى نهاية الفاصلة ، فنجد أن جواباً الشرط المقترن بالألف كان أسرع مجيئاً في النطق، وهذا ما يحقق التماثل والتشابه بين السورتين .

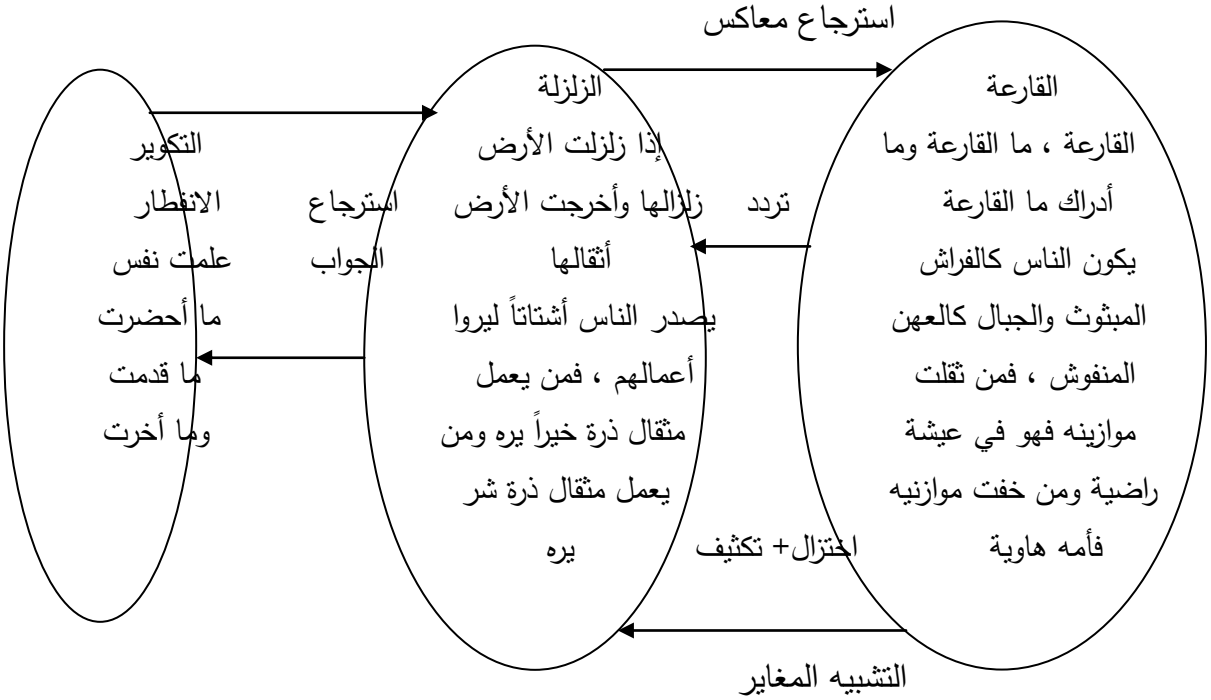

مخطط تفصيلي لرصد البنى المتحولة في التناظر لسورتي (القارعة والزلزلة)

---

(1) البقرة، 23

(2) تاريخ الادب العربي ، العصر الاسلامي ، شوقي ضيف ، القاهرة 1986، دار المعارف ،ط7 ،د،ت،31.

(3) المصدر نفسه.

(4) ينظر: الاصالة والمعاصرة في ادب المسعدي،187.

(5) ينظر: التداخل النصي في القصةالعراقية القصيرة ،1998/1980، رسالة ماجستير ، شذى خلف حسين ، كلية التربية للبنات ، جامعة بغداد،2000 ،45.

(6) إعجاز القرآن ، الباقلاني (ت 403هـ) تحقيق : السيد أحمد صقر ، دار المعارف بمصر ، 1963، ص270 .

(7) يوم الدين والحساب شكري محمد عياد ، ط1 ، 1980 ، ص41 .

(8) ينظر : الإعجاز الفني في القرآن الكريم ، عمر السلامي ، نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله ، تونس ، 1980 ، ص225 .

(9) خصائص العربية ، ومنهجها الأصيل في التجديد والتوليد ، محمد محمد مبارك ، مطبعة نهضة مصر ، 1960 ، ص24 .

(10) يوم الدين والحساب، شكري محمد عياد،ص85.

(11) مشاهد القيامة،ص16.

(12) نقلاً عن كتاب أساليب التعبير الأدبي مجموعة مقالات ، مقال وحدة القرآن الكريم ، أ.د . محمد الأمين الخضري ، ط1 ، 2000 ، ص34 .

(13) ينظر : علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق ، دراسة تطبيقية على السور المكية ، صبحي الفقي ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، 2000 : 1 / 145 .

(14) ينظر : التكوير ، الانشقاق ، الانفطار .

(15) يوم الحساب والدين،ص 37.

(16) ينظر : في ظلال القرآن ، سيد قطب ، 230/3 .

(17) ينظر : التفسير البياني ، عائشة عبد الرحمن ، 178/2 .

(18) يوم الدين والحساب ، شكري محمد عباد : 46 .

(19) التفير البياني ، عائشة عبد الرحمن 1 / 68 .

(20) المصدر نفسه 1 / 72 .

(21) ينظر : الجرس والإيقاع في التعبير القرآني ، د . كاصد الزبيدي ، بحث منشور : 354 .

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم .**
- أساليب التعبير الأدبي مجموعة مقالات ، مقال وحدة القرآن الكريم ، أ.د. محمد الأمين الخضري ، ط1 ، 2000 .
- الإعجاز الفني في القرآن الكريم ، عمر السلامي ، نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله ، تونس ، 1980 .
- إعجاز القرآن ، الباقراني (ت403هـ) ، تحقيق : السيد أحمد صقر ، دار المعارف بمصر ، 1963 .
- الاصالة والمعاصرة في ادب المسعدي،
- تاريخ الادب العربي ، العصر الاسلامي ، شوقي ضيف ، القاهرة 1986، دار المعارف ،ط7 ،د،ت.
- التداخل النصي في القصة العراقية القصيرة ،1998/1980، رسالة ماجستير ، شذى خلف حسين ، كلية التربية للبنات ، جامعة بغداد،2000
- التفسير البياني للقرآن ، عائشة عبد الرحمن .دار لمعارف، القاهرة ،1962.
- الجرس والإيقاع في التعبير القرآني ، د. كاصد الزبيدي ، بحث منشور .

- خصائص العربية ، ومنهجها الأصيل في التجديد والتوليد ، محمد محمد المبارك، مطبعة نهضة مصر 1960 .
- علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق ، دراسة تطبيقية على السور المكية ، صبحي الفقي ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، 2000 .
- في ظلال القرآن ، سيد قطب . طبع دار الشروق ، بيروت،1980..
- مشاهد يوم القيامة في القرآن، سيد قطب، دار الشروق،ط9، 1989.
- يوم الدين والحساب شكري محمد عياد ، ط1 ، 1980 .